فهـــرس الـعـــدد

مغزى ملتقيات الفكر الاسلامى	**مولود قاسم نايت بلقاسم**	2
● **من محاضرات الملتقى 11 للفكر الاسلامى**		
المجتمع التاهرتى فى عهد الرستميين	**د٠ احسان عباس**	20
ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية	**د. وداد القاضى**	37
محمد وعبد الرحمان بن رستم فى قرطبة	**د٠ ماریاخیسوس فغیرا**	59
الاسلام فى افريقيا اليوم	**محمد عبد الله عنان**	81
● **من اصداء الملتقى 8 :**		
الملتقى الثامن للفكر الاسلامى	**صبرى أبو المجد**	87
● **دراسات تاريخية :**		
الطاهريون والدولة العباسية	**د٠ منجى الكعبى**	94
● **من اصداء الملتقى 11 :**		
لقاء مع مولود قاسم نايت بلقاسم	**عبد العال الحمامصى**	117
الجزائر والملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى	**فهمى عبد العليم الامام**	120
● **كتـب جديـدة :**		
أبو حمو الزيانى : حياته وآثاره	**د٠ محمد بلقراد**	136
● **رسائل جامعية :**		
نظم الدر والعقيان ، فى شرف بنى زيان	**د٠ محمود بوعياد**	150

النقطة 1

المجتمع التاهرتى في عهد الرستميين

د. احسان عباس
أستاذ بالجامعة الامريكية
بيروت ـ لبنان
وأستاذ زائر بجامعة برنستون
(الولايات المتحدة الامريكية)

ان قوة النواة الاباضية في تاسيس مدينة تاهرت (تيهرت) وفي انشاء الدولة الرستمية امر يقبل دون منازعة أو شك ، أو تحفظ ، وخاصة اذ اصبحت تلك الفرقة بعد مقتل الامام أبي الخطاب (سنة 144 هـ) بحاجة ماسة الى ايجاد كيان ذاتي ، جغرافي واداري ، بمنأى عن نفوذ الاغالبة ، ولكن أولئك الاباضية الذين تعاونوا على تاسيس المدينة كانوا أيضا ينتمون الى عدة قبائل منها لماية ولواتة ورجالة ونفزاوة (1) .

وان الخشية من المنافسة بين رؤسائهم ـ « اذ كان كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدير أمر القبيل » ـ (ابن الصغير : 321) (2) ـ هي التي حفزتهم

الى اختيار رئيس ليس له من قبيلة تمنعه أو تتعصب له ، وهذا يعنى ان الرستميين الذين تعاقبوا على حكم تاهرت (من سنة 160 ـ 296) لم يكونوا سوى أسرة حاكمة ، وانهم رغم تكاثرهم حتى أصبحوا يمثلون وحدة من تلك الوحدات الكثيرة التى أصبح يتألف منها المجتمع التاهرتى ، ظلوا يعتمدون على كفايتهم الشخصية وعلى الجند والمحالفات الآتية وروابط الولاء وأحيانا على روابط المصاهرة فى سياسة الدولة ، ومع كراهية الاباضية لمبدأ الوراثة فى الحكم ـ وهو أمر جر الى بعض الانقسامات المذهبية وقوبل أحيانا بالنقد الشديد ـ (3) فان هيمنة الامر الواقع ، أعنى البحث عن حاكم **فاضل ، ليس له سند قبلى** ، هو الذى كان يتحكم الى حد كبير فى اختيار الامام ، وظل كذلك حتى النهاية ، حتى ان مثل هذا السؤال : « هل يكون حاكم من غير الرستميين ؟ » ، استبعد فى كل مرة استبعادا تاما ، لدى جميع الفئات التى يتكون منها المجتمع التاهرتى ، رغم امكان طرحه أحيانا ، ولعل السيرة الفاضلة التى رسمها الائمة الثلاثة الاول عبد الرحمن وعبد الوهاب وأفلح ـ على التوالى ـ هى التى رسخت فى اذهان التاهرتيين على اختلاف انتماءاتهم أن الرستميين ، من الناحية العملية أيضا ، هم خير من يحقق للمجتمع العدالة والامن والمساواة ، ويؤثل الحياة العلمية والعمرانية على أرسخ القواعد والاصول ، وزادتهم يقينا بأن تجرد الرستميين من روابط العصبية هو الذى يقوى اعتمادهم كثيرا على قوتهم المعنوية المستمدة من الدين .

ومع ان العامل الجغرافى من حيث المنعة والحصانة كان أساسيا فى اختيار الموقع الملائم لبناء المدينة ، فانه لم يكن العامل الوحيد الهام ، بل كانت هناك عوامل أخرى كثيرة من أهمها : خصب الموقع وقابليته للاستثمار الزراعى (4) والنمو التجارى (5) برا وبحرا ومنها صيانة التماثل بين العناصر التى سيتألف منها المجتمع ـ على قدر الامكان ـ وكان هذا يعنى ـ قبل كل شىء ـ الاحتفاظ بالنواة الاباضية قوية غالبة فى العدد والتنظيم وكان ذلك أمرا سهلا فى البداية ، لان العناصر السكانية الاولى كانت فى الغالب كذلك ، بل ان تلك النواة زادت قوة بهجرة قبائل نفوسة ، ودعمها للدولة ،

واضطلاعها برعاية المؤسسات الحيوية فى المدينة مثل : اختيار القضاة ، وادارة بيوت الامـوال ، وانكار المنكر فى الاسـواق ، والاحتساب على الفساق (337) ، كما كان الشراة (6) رقباء على تصرفات الامام فى أحكامه وصدقاته واعشاره ، ومشايخ القوم مرجعه فى الشورى ، فاذا اجتذبت الجمهورية الناشئة اليها مهاجرين جددا ، فـان هؤلاء كانوا ممن يود ان ينعم ببركات الاستقرار والامن والعدالة والرخاء الاقتصادى ، وهم يدركون تمام الادراك أنهم ينظرون الى ظل دولة قد تختلف عنهم فى المذهب ، ولكنهم كانوا يعلمون أيضا ان الخلافات المذهبية لدى تلك الجمهورية الناشئة التى تتسع ساحة العدل فيها للجميع لا تحل بالتخرب والاستنفار والاحتكام الى السيف ، وانما يتم الخوض فيها عن طريق الحوار الهادى ، ويمثل الواصلية ـ وهم احدى فـرق المعتزلة ـ أول العناصر التى لم تكن تجـد فى السيطرة الاباضية تهديدا لوجودها فكان مجمعهم قريبا من تاهرت ، وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا ، يسكنون فى بيـوت كبيوت الاعراب (7) ، وقد كان الحوار مستمرا بين الفريقين ، وحتى حين احتكـم الواصلية الى السيف فى أيام الامام عبد الوهاب لم يكف عـن خطته فى طلبهـم للمناظرة (8) ، وظلت المناظرة مثابة الفريقين بعد ذلك (352) ، وبعد هدوء الفتنة التى كادت تعصف بالدولة أيام أبى حاتم ثاب الناس الى ما ألفوه من هذا اللون من الحوار ، ويحدثنا ابن الصغير عن هذه المرحلة الاخيرة بقوله : « ومن بالبلد من فقهاء الاباضية وغيرهم لم يطالب بعضهم [بعضا] ولا سعى بعضهم ببعض ، وكانت مساجدهم عامـرة وجامعهم يجتمعون فيه ، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا ، الا أن الفقهاء تناشجت المسائل فيما بينهم ... ومن أتى الى حلق الاباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الاباضية الى حلق غيرهم كان سبيله كذلك » (363) ، وهذه الروح السمحة هى التى كفلت التضامن للمجتمع التاهرتى فى معظم أيـام الرستميين ، وساعدت على لأم الجراح التى كانت تسببها الانقسامات أحيانا .

الا أن هذا التماثل السكانى ـ رغم اعتماده على محور ثابت ـ لم يظل كما بـدأ لعـوامل ثـلاثـة :

أولهـا : كثرة العناصر المهاجرة وتعدد انتماءاتها .

وثانيها : الانقسامات الداخلية بين الاباضية أنفسهم ، وتكون فرق جديدة انشقت على الفرقة الام واخذت تناوئها ، مثل النكارية والخلفية .

وثالثها : نشوء طبقة كبيرة من الاثرياء تتحدى قدرة نفوسة على تطبيق الاحكام ، وتمثل ـ رغم انقسامها أحيانا وتضارب مصالها ـ قوة ضغط اقتصادى وسياسى ٠

وفى وقت قصير نسبيا تعقد المبنى الاجتماعى فى تاهرت ، على أساس الانتماء المذهبى والقبلى والعرقى والاقتصادى ، وتعددت ضروب الولاء وأنواع التحالفات ، وكثرت الانقسامات والتوجهات بحسب ما تمليه المصالح المختلفة ، وكان مما حال دون انصهار هذه العناصر لا تشبثها بانتماءاتها القديمة وتباعد المسافات بين تلك الانتماءات وحسب ، بل استقلال كل منها فى حى خاص فى المدينة ، ولجوء كل منها ـ بدافع التخوف والحذر ـ الى بناء الحصون التى تأوى اليها اذا شبت نار الفتنة.فبينا تاهرت فى أيام السلم جمهورية نموذجية ، اذا بها فى أيام الفتن شبه مهجورة ، قد غادرها كثير من سكانها ولجأوا الى حصونهم ودب فيها التنافر والتناحر ، فتعطلت فيها المصالح التجارية والعلمية ، وقامت فيها تحالفات جديدة وحاول كل حلف منها ان يقضى على الحلف الآخر ٠

ويكاد نمو تاهرت ان يكون أسطوريا : ولو صدقنا ابن الصغير لقلنا ان هذا التطور تم فى أقل من ثلاث سنوات ، أيام الامام عبد الرحمن بن رستم؟ فمن قرية صغيرة ريفية الطابع فقيرة تقبل المساعدات المالية من وفد البصرة لتبنى بها قوة تدافع بها عن نفسها وتشترى الكراع والسلاح اللازم لها وتنعش الفقراء والمحتاجين ، اذا بها مدينة غنية عامرة قد غرست فيها الجنات وأجريت فيها الانهر ، واتخذت فيها الارجاء والمستغلات ، وابتنيت القصور ، وافتليت الخيول ، وكثرت العبيد والخدام ، وأصبحت قادرة على ان تقف فى وجه من تحدثه نفسه بغزوها ، حسبما شاهدها الوفد البصرى الذى زارها مرة ثانية بعد قرابة ثلاث سنوات من زيارته الاولى (324 ـ 325) . وكلام ابن الصغير صحيح فى جملته لولا عامل الزمن ، فان تاهرت بنيت قبل ان يصبح عبد الرحمن اماما بزمن غير قصير ، واستمر عبد الرحمن فيها بعد البيعة مدة تناهز عشر سنوات أو تزيد (160 ـ 168 أو 171) وهذا قد يعنى ان ما شهدته تاهرت من نمو لم يتم فى فترة قصيرة وانه لابد من تصحيح الزمن بين الفترتين اللتين زارها فيهما وفد البصرة ٠

الا ان هذا النمو نفسه هو الذى شجع تدفق المهاجرين اليها ، وكانت سيرة عبد الرحمن فى اسباغ العدالة واقرار الامن دون تمييز بين المواطنين الاصليين والغرباء عاملا هاما آخر فى توالى الهجرات « فأتتهم الوفود والرفاق من كل الامصار وأقاصى الاقطار فلم يكن احد ينزل بهم من الغرباء الا استوطن معهم وابتنى بين اظهرهم ، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امامه وعدله فى رعيته وأمانه على نفسه وماله » (324) وفى زمن الامام عبد الوهاب استمر هذا النمو ، الا ان الصبغة العسكرية غلبت على ما عداها لحاجته الى القضاء على الفتن وتوطيد اركان الدولة ، بل والطموح الى التوسع الخارجى ، حتى اجتمع له من الجيوش ما لم يجتمع لاحد قبله (328) ومع الزمن انضاف الى هذه الجيوش جند هاجروا من افريقية ، وكان الامام يدفع لهم مرتباتهم كغيرها من مرتبات القضاة ورجال الشرطة وغيرهم ـ من مال الجزية وخراج الارضين ، وتلك هى السنة التى سار عليها الامام الاول عبد الرحمن ٠

وقد بلغ ازدهار تاهرت ذروته فى أيام الامام الثالث أفلح بن عبد الوهاب ، وفى مدة حكمه الطويل الذى امتد ـ فى بعض الروايات ـ خمسين سنة ـ انتقلت تاهرت الى دور التضخم العمرانى من كل النواحى فهى مركز زراعى هام ، وملتقى تجارى ذو شان ، وهى أيضا مركز علمى ، وذات وزن سياسى ، بل ان التغير قد لحق الامام نفسه فلم يجد حرجا فى ابتناء القصور بعد ان ظل جده يسكن دارا متواضعة يطينها بنفسه اذا احتاجت لذلك ويكتفى من مطعمه بقرصته تلت بالسمن والملح وليس لديه من الاثاث الا حصير فوقه جلد ووسادة ينام عليها (323) ؛ ولقد ازدادت الاموال فى ايدى الناس ، وتنافسوا فى العمران وبلغت المدينة اقصى درجات الاتساع والامتداد ، فالى جانب الاحياء الاصلية التى استوطنتها القبائل ، وشاركها فيها بعض المهاجرين الاوائل ، يمكن ان يميز الناظر اليها فى زمن الامام افلح ثلاث وحدات جديدة : حى الاجناد المهاجرين بكثرة من افريقية وقد أصبح هذا الحى من بعد ـ فى القرن الثالث ـ هو سرة المدينة نفسها ، والعدوة عبر نهر مينة التى بنتها نفوسة ، ومنطقة القصور والضياع واكثرها فى الضواحى ، حيث الجنات والبساتين ٠

كذلك يستطيع المرء ان يميز ثلاث درجات من الاستيطان والمستوطنين حتى عهد الامـــام أفلـــح :

1 ـ فهناك الاستيطان الحضرى ويشمل المدينة وسكانها ـ على مختلف انتماءاتهم وقصور الاثرياء منهم فى الضواحى ·

2 ـ وهناك الاستيطان القبلى المستقر ، وتمثله القبائل التى تحيط بالمدينة من جهاتها المختلفة ، ومنها لواتة وزناتة ومطماطة وهوارة ، وقد ذكر البكرى القبائـل التى كانت تقطن حول المدينة فعد فى جنوبها لواتة وهوارة وفى غربها زواغة وفى شمالها مطماطة وزناتة (9) ولعل هذا الوصف ينطبق على ما كانت عليه الحـال ، فى عهد الامام الثالث ·

3 ـ والاستيطان القبلى المتنقل وتمثله بعض القبائل التى كانت تقصد الى تاهرت وضواحيها وأحوازها انتجاعا للكلأ فى أيام الربيع ، مثل مزاتة وسدراتة ، وكانوا يأنسون بوجود اخوانهم من القبائل نفسها ممن يقطنون المدينة ، ويجدون لديهم البر والاكرام كلما حلوا (328) ، ولا ريب فى أنهم كانوا يبعثون شيئا مـــن الحيوية فى الاسواق التجارية ، حتى اذا انتهى موسم الرعى عادوا الى أوطانهم ·

وكان الذين يمثلون الاستيطان الحضرى « أخلاطا من الناس » (10) ولعل تسمية تاهرت « عراق المغرب » (11) انما تشير الى كثرة العناصر العراقية التى هاجـرت اليها ، فقد كان فيها كثير من البصريين والكوفيين ، ولكل ناس منهم مسجد معروف بهم ، كما هاجر اليها عدد من القرويين كان لهم أيضا مسجد ورحبة (324) وعدد من الاندلسيين لعل اكثرهم كانوا من البحريين الذين اتخذوا لهم مراكز متعددة عـلى ساحل المغرب ، وشاركوا فى بناء وهران ، ووجدوا فى النشاط التجارى فى تاهرت ومرفئها ما يحقق أهدافهم (12) وكان بعض المنتسبين الى الاندلس اباضيين ، وقـد كان منهم اثنان فى رجال الشورى السبعة الذين سماهم الامام عبد الرحمن ليختاروا اماما من بينهم ، وهما : الفقيه مسعود الاندلسى ، وعمران بن مروان الاندلسى (13) ، ولولا زهد مسعود فى الامامة لوقع الاختيار عليه دون عبد الوهاب ، وفيما عدا ذلك

لا يميز الاندلسيون بدور واضح فى حياة المدينة أو فى الانقسامات التى شهدتها من بعد .

وكانت البنية الاجتماعية فى المدينة تتركب ـ بشكل رئيسى ـ من القبائل والعرب والعجم ، اما القبائل فهى التى كانت تمثل العصب الاساسى للمدينة عند تأسيسها ، وتقف بينها لماية ونفوسة موقفا متميزا ، الاولى لحلف قديم بينها وبين عبد الرحمن ابن رستم ، والثانية لمكانتها فى تسيير المصالح المختلفة فى الدولة ، ومن بين هذه القبائل مزاتة وسدراتة ولواتة ، وكلها تسند الدولة وتجد فى استمرارها سندا لها أيضا ، وفى مزاتة يقول الامام عبد الوهاب : « ما قام هذا الدين الا بسيوف نفوسة وأموال زناتة » (14) وهى قولة قد تعنى ان مزاتة كانت ذات ثراء عريض ، ولكن الاهم من ذلك استعدادها للتضحية والسخاء بالمال قل ذلك المال أو كثر ، كذلك ظلت لواتة دائما فى صف الامام الرستمى عند تقلب الاحوال ، وقد زادت رابطتها بالرستميين منذ ان اصهر اليها الامام عبد الوهاب ، وقد بقيت لواتة فى المدينة حتى أخرجتها منها هوارة فى فترة الفتن أيام أبى بكر ، ولا حاجة بنا الى القول ان هذه القبائل كانت اباضية المذهب ، وأما العرب فلا نعرف على وجه التحديد من أين وفدوا، ولا من أين هاجرت أغلبيتهم انتماء ، ويبدو أنهم كانوا من أقطار مختلفة وقد احتفظ أكثرهم بمذاهبهم الاصلية ، وكان معظمهم من الحنفية والمالكية ، واختار بعضهم مذهب الاباضية ومن هؤلاء محمود بن بكر الذى كان يؤلف الكتب فى الرد على مخالفى الاباضية ويرد على الفرق فى مقالاتهم (352) وأما العجم فانهم قد يكونون ـ رغم غموض دلالة اللفظ ـ من الفرس ، وليس واضحا كيف جاءوا الى تاهرت ومن أين جاءوا ، ولعل انتساب الرستميين الى الفرس كان مشجعا لهم على الهجرة ، وقد كان لهم دور بارز فى أيام الفتن والانقسامات .

وفى نص ابن الصغير ترد لفظة « المسيحيين » (345 ـ 359) وأنهم كانوا فى خاصة الامام أبى بكر ، وأنهم كانوا من وجوه أهل البلد ، واشتهر منهم فارس اسمه بكر بن عبد الواحد ، ان موقع اللفظة غريب لأنا لم نألف استعمالها ، وانما تورد المصادر بدلها لفظ « النصارى » على التحديد،أو لفظ « الروم » أو « الفرنجة » ، وقد

قرأها سليمان الباروني « السمحيين » (15) ، ومرة أخرى لا نعرف فى فرق الاباضية فرقة تحمل هذا الاسم وغاية ما يمكن ترجيحه ـ ان صحت التسمية ـ أن جماعة ممن رفضوا انشقاق خلف بن السمح بن أبى الخطاب ، ظلوا يتشبثون بانتمائهم الى السمح نفسه ، وهاجروا الى تاهرت وسندوا الدولة الشرعية ، وكانوا فى خاصة الامام ومن وجوه أهل البلد ، واذا افترضنا ان اللفظة عند ابن الصغير قد تصحفت فهذا لا يعنى وجود فريق من النصارى فى مجتمع تاهرت أو استبعاد وجود عدد من اليهود أيضا ـ لما كان لتاهرت من أهمية تجارية افريقية متوسطة وقد مر بنا أن الامام كان يأخذ مرتبات الموظفين من أموال الجزية والخراج ، ولفظة « الجزية » تستدعى حتما وجود بعض الذميين ، والا كان ذكرها غير ذى معنى ، ولعل من اللافت للنظر ان أعلى موضع فى المدينة كان يسمى الكنيسة ، (كانت دارا لاثنين من أوسع الناس نفوذا فى عصرهما وهما أحمد ومحمد ابنا دبوس (345 ـ 362) ·

ومع ازدياد الثروات نمت عند القارين من السكان ، اعنى فى المدينة نفسها وبين القبائل المحيطة بها ، طبقة كبيرة جدا من العبيد والخدم ، وكانت الحركة التجارية مع بلاد السودان ـ عن طريق ورجلان ـ تزيد فى عدد هذه الفئة على الدوام ويمكن للمرء ان يتصور ان هؤلاء العبيد لم يتخذوا للخدمة فى منازل الاثرياء وقصورهم وحسب بل كان يتألف منهم ـ على الاغلب ـ أكثر العاملين فى المزارع والبساتين والارحاء ·

ويتحدث المؤرخ ابن الصغير عن طبقات المجتمع التاهرتى ـ من خلال الاحداث التاريخية ـ على نحو قد يوحى بشىء من الاضطراب ، فهو يذكر « **العوام** » ويذكر الى جانبهم « **أهل الحرف** » (16) كانهم فئتان متمايزتان ، ويضع فى مقابل الفريقين « **القبائل** » (356 ـ 357) ، ثم يتحدث عمن يسميهم وجوه **أهل البلد** ، وعددهم لا يزيد على مائة ، ويصفهم بأنهم حماة البلد وانهم خرجوا منها مع الامام الرستمى ، وبقى فى المدينة « **العامة** »و« **مشايخ البلد** » (359) وبذلك يرسم خطا فارقا بين وجوه أهل البلد ومشايخ البلد ، وفى موضع ثالث يذكر « **وجوه أهل المدينة** » وفى مقابلهم « **القبائل** » « **والاباضية** » ويبدو ان سبب هذا الاضطراب ليس استعصاء بعض هذه

المصطلحات على التحديد وحسب ، بل لان المؤرخ نفسه يتحدث وفى نفسه تفرقة راسخة بين الاباضية وغيرهم ، فهو حين يذكر العوام وأهل الحرف انما يتحدث عن حركة مناهضة للاباضية استبعد فيها أخذ رأى القبائل ، ولعل هذه القسمة ان تشير أيضا الى تمييز بين الاجناس فالقبائل بطبيعة الحال من البربر ، والعوام وأهل الحرف يمثلون ـ فيما يبدو ـ عناصر غير بربرية ، وحين تحدث عن وجود أهل البلد المائة ، فانما كان يعنى جماعة بعينها من ذوى النفوذ ـ ايا كان منتمى افرادها ـ التفت حول أبى حاتم وخرجت معه **بعد خروج العجم ونفوسة** واذن فان من تبقى من العامة ومشايخ البلد انما يشير الى الجماعات غير الاباضية أيضا ، وحين يضع وجوه أهل المدينة فى مقابل « القبائل » و « الاباضية » فانه يستعمل هذا المقياس فى التفرقة كذلك ، غير ان هذه التفرقة لا تدل على ميل المؤرخ بمقدار ما تدل على حقيقة الصراع الدائر أيام الفتن ، فهو صراع بدأ بين الاجناس (العرب ضد العجم) ثم تحول الى صراع مذهبى يريد ان يقرر لمن يكون الفوز بالسيطرة فى المجتمع التاهرتى ـ كما سيجىء تفصيله ـ وهو يدل أيضا على طغيان العناصر المهاجرة ، بحيث لم تعد ترضى بأن تحتفظ النواة الاباضية بقوتها فى توجيه الدولة ، وذلك هو ما أشرت اليه فى أوائل هذا البحث .

واذا نحن تجاوزنا ما أملته أوضاع الانقسام فى تمايز الفئات المتناحرة ، وجدنا ان مشايخ البلد ـ باقرار المؤرخ نفسه ـ لم تكن تستقل بهم فئة دون أخرى ، فكان هناك مشايخ من الاباضية ومشايخ من غيرهم ، وان (وجوه البلد) كانوا موجودين فى كل فئة ، ففى العجم مقدموهم ، وفى القبائل على المستوى القبلى ، والمذهبى ـ وفى العرب ، وفى الجند ، وجوه ، وفى طليعة (وجوه البلد) الرستميون انفسهم وهؤلاء جميعا يمثلون ـ فى أيام السلم ـ اصحاب النفوذ ، ومنهم كما يقول المؤرخ حماة البلد والموجهون لسياسته ومصالحه ، سواء أتدخلوا فى ذلك فى الخفاء أو العلن ، وتقابله طبقة العامة ـ وهى تمثل الاغلبية من حيث العدد ، وربما كان معظمها من أصحاب الدخل المتوسط أو من ذوى الملكيات الصغيرة ، وكثير من افرادها لم يكتسب علما أو فقها يلحقهم بوجوه البلد أو بالخاصة . وقد يصح ان نسأل هنا : ما هى نسبة الفقر فى هذه الطبقة ؟ اننا نعرف انه كان فى تاهرت فى الفترة الاولى مـــن

تأسيسها فئة من الفقراء والمحتاجين ، ولكن السياسة الاسلامية الراشدة التى جرى عليها الامام عبد الرحمن كانت كفيلة بان تنعش هذه الفئة ، فبعد تقبل المساعدات من وفد البصرة ـ أول مرة ـ وتوزيع ثلثها على المستحقين من فقراء وضعفاء ، أصبح البلد مكتفيا ذاتيا ، اذ نظم جمع الصدقات ، وكان ما يتحصل منها كل عام من الشياه والجمال يباع ، ثم يحصى الامام من فى البلد وحوله ويعرف عدد الفقراء والمساكين « فاذا علم عددهم امر باحصاء ما فى الاهراء من الطعام ، ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة (بعد ان يدفع الى عمال الصدقات مرتباتهم) فاشترى منه اكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع فى كل أهل بيت بقدر ذلك » (327) • وليس من شك فى أن هذه السياسة لم تتوقف ، وان لم ينوه بها على نحو واضح ، لتمسك أكثر الائمة بتطبيق الشريعة تطبيقا دقيقا ، وسيرهم الفاضلة فى خاص حياتهم ، ولوجود الشراة الذين لم ينفكوا قائمين بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فى كل مرحلة • بل الطبيعى ان الصدقات زادت وقل المحتاجون ، عندما تعددت فرص العمل، وكثرت الموارد ، فالفقر ـ بالمعنى العام ـ لم يكن داء يهدد المجتمع التاهرتى ، أو يتعذر فيه علاجه • ولكن لابد لنا من ان نتذكر فى هذا الصدد ان نمو الطبقة الثرية واتساع دائرتها قد زاد فى عدد من يتصل بها من الحواشى والاتبـــاع ، وهؤلاء يصبحون مع الزمن عالة على غيرهم ، وأن تعطل تطبيق النظام أيام الفتن كان أيضا يعطل تحصيل الصدقات وصرفها فى الوجوه المقررة وان تملك الفتن كانت تقضى بالحرق والنهب والخراب لا على املاك الاغنياء فحسب ، بل على مقتنيات الطبقـــة الوسطى وما دونها أيضا • وحين كتب ابن حوقل عن تاهرت بعد منتصف القرن الرابع (وكانت دولة الرستميين قد زالت منذ زمن) قال : « وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه ، وأهلها وجميع من قاربها من البربر فى وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثـرة القتل والموت » (17) وقول ابن حوقل ينطبق على الفتن التى شاهدتها تاهرت أيام الرستميين انفسهم ، مثل ما ينطبق على الفتن التى اصابت المدينة بعد عهدهم •

اما الخاصة أو « وجوه البلد » فربما كانت فى البداية تعتمد فى تميزها على النسب، أو على العلم ـ كما كانت حال الفقهاء ، من جميع الفئات ولكن نمو الملكيات وموارد

الثروة خلق طبقة تعتمد فى تميزها على الغناء ، وكثيرا ما كانت العوامل الثلاثة تجتمع معا ، فى تمييز الفرد ، مثلما ان المال وحده كان كافيا ليفعل ذلك وقد وجد اثرياء عن طريق الزراعة مثل ابى جرنى الذى كانت زكاة غلاته آلاف الاحمال من البر والشعير وقيل ان اندر زرعه كان يرى من مسافة أيام كالجبل (18) كما وجد اثرياء عن طريق القنية للمواشى والدواب مثل ابن زلغين الذى يقال انه كان يملك ثلاثين ألفا من الابل وثلاثمائة ألف رأس من الغنم واثنى عشرة ألفا من الحمير (19) غير ان التجارة كانت بوجه خاص هى الباب الواسع الذى دخل منه كثيرون الى طبقة الخاصة ، اذ كانت مجالا مفتوحا يزاوله اناس من جميع الفئات فقد كان عبد الوهاب نفسه تاجرا ، هيأت له تجارته ثراء ضخما ، وقد تحدث عن نفسه وعن أبى جرنى وابن زلغين بقوله : « لو لم اكن الا أنا وابن جرنى وبن زلغين لاغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية (20) وكذلك حاول افلح مزاولة التجارة فى عهد لم يكن فيه قد حصل على كفايته من العلم · (21)

وكان الثراء فى فئة العجم أوضح منه عند غيره ، ولذلك تميزوا ببناء القصور فابتنى ابان وجمويه قصرين لهما باملاق ، وبنا شخص باسمه عبدالواحد قصرا ظل يعرف باسمه من بعد (336) وبلغ من ثراء مقدم العجم المعروف بابن وردة أن كان له سوق كامل، وبلغ من نفوذه أن كان صاحب شرطة الامام افلح لا يجسران يدخل سوقه (336) ومع ان الثرى خلف الخادم كان من الموالى ، فانه استخدم ثراءه فى سند الفئات العربية فى الفتن · وكذلك يمكن ان يعد التاجران الثريان أبو محمد الصيرفى وابن الواسطى من العرب لانهما وقفا معهم فى الصراع بينهم وبين العجم (347) وكان لمحمد بن حماد منزل على بعض اميال من المدينة يقال له الثلث (أو الثلة) قد جمع الاشجار والانهر والمزارع والنخل والقصور (338) وكان محمد بن عرفة الذى قام بدور الحاكم الفعلى أيام ابى بكر بن افلح من كبار التجار ومن ذوى القصور ولديه الكثير من الحشم والعبيد وكان اذا خرج من قصره تجمهر الناس من حوله ، وساروا بين يديه فى مواكب كثيرة (358) وليست هذه الاسماء الا امثلة ضئيلة لطبقة كبيرة أوصلها الثراء الى ان اصبحت ذات اثر بالغ فى توجيه الحياة السياسية فى المدينة ·

ولا ريب فى أنه كان هناك كثير من وجوه الخير استغل فيها مثل هذا الثراء ، لا فى سند الدعوة وحسب ، بل فى مجالات عمرانية أخرى مثل الانفاق على طلبة العلم ووقف الحبوس على المساجد وانشاء المستشفيات وبيوت الضيافة للغرباء ، اقول هذا على سبيل التقدير ، لان مصادرنا القليلة قد سكتت عن هذه النواحى · لكن تلك المصادر نفسها كانت صريحة فى التحدث عن استغلال تلك الثروات الطائلة فى الصراع بين فئات المجتمع التاهرتى ·

وليس غريبا ان يبدأ تاريخ الصراع فى أيام الامام افلح ، فان بدايته تتفق وتلك الموجة الطاغية من الثراء ، واشتعل أول الامر بين القبائل المحيطة بالمدينة · ولا يتردد ابن الصغير فى ان ينسب البدء باثارته الى الامام افلح نفسه مصورا انه كان سياسة ارتاءها ذلك الامام فقد كان يخاف ان تجتمع الايدى عليه فتزيل ملكه ولهذا ارث العداء بين كل قبيلتين متجاورتين ، فتحركت الخصومة بين لواتة وزناتة وبين لواتة ومطماطة ، ثم امتد الصراع ـ بسعى افلح نفسه ـ فشب بين الجند والعجم وربما كان هذا التصوير قائما على المبالغة أو على تجاهل الاسباب الاخرى التى كانت كفيلة بأن تذكى نار العداء بين فريق وفريق ، وابن الصغير نفسه يذكر ان القبائل حول تاهرت كانت قد اكتسبت الاموال واتخذت العبيد والخيول ، ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة ، وبعبارة أخرى : استشعرت عظمة الغنى ونعمة الاستقرار معا ، وفى مثل هذا الموقف لم تكن بحاجة الى جهود افلح ليبذر الشقاق فيما بينها ، فان المنافسة وحب الظهور والحزازات الصغيرة ـ مع عدم الانشغال بمكافحة عدو أو ترقب خطر ـ من شأنها ان تفعل ذلك ، ولو صدقنا ان افلح قد انتهج هذه السياسة ـ لانه لم يكن يعتمد على عصبية ـ فانها سياسة قد تنجح وتؤمن مغبتها ما دام الحاكم قويا ، ولكنها ستكون سببا فى استمرار الفتن ، وعجز الحكام اللاحقين الذين لم يكونوا يتمتعون بمثل قوة افلح ـ عن كبح جماحها ؟ وهى سياسة من شأنها ان تجعل الفتن المتلاحقة ـ فى المجتمعات التى تؤمن بالثأر ـ قانون الحياة لان كل فتنة تصبح ردا على فتنة سابقة ، كلما سنحت الفرصة ·

وتلك هى حقيقة ما اصاب المجتمع التاهرتى بعد افلح فان الانقسامات المختلفة هى التى أصبحت تتحكم فى حياة البلد ومستقبله ، فهناك النزاع بين القبائل ، والضغائن بين القبائل وأهل الحواضر ، ثم هناك الانقسامات والتحالفات بين العناصر التى يتكون منها مجتمع المدينة ٠

وكانت الشرارة الاولى فى ذلك الصراع ثارا لفرد ـ بدافع العصبية ـ فقد قتل محمد بن عرفة ، صهر الامام أبى بكر ، بتدبير من الامام نفسه وبتحريض من بعض الرستميين ويبدو أن ابن عرفة كان عربيا ، ولذلك قام العرب يطالبون بثأره ، فاصطدموا بالجند المؤيدين لابى بكر ، غير ان هذه البداية ما لبثت ان تطورت الى القتال على أساس عرقى ، فان العجم عندما رأوا فريقى العرب والجند يقتتلان ، ظنوا الفرصة سانحة لاخذ بعض الاحياء العربية على غرة وقالوا : « قد أمكننا فى العرب والجند ومواليهم وأتباعهم ما نريد ، فقوموا بنا مع اشتغالهم بأنفسهم حتى نثب على طرف المدينة فتقتل مقاتلتهم ونخرب ديارهم ونميل على سائرهم فنهلكهم فيعنو لنا السلطان » (345) ، وحين نذر العرب والجند بما يحاوله العجم تهادنوا واصطلحوا ، وقاموا بأجمعهم نحو العجم فقتلوا منهم خلقا كثيرا ٠ وهنا يبرز دور الثرى خلف الخادم الذى كان يعين العرب بماله ، فانه لم يرض عن اجلاء العجم وترك بيوتهم خالية ، بل حرض على حرق تلك البيوت ، وذات يوم دارت المعركة فى درب النفوسيين ، واضرم فيها العرب والجند النار ، وكان بعض الدور لنفوسة ، التى كانت قد اعتزلت الحرب ، فغضبت نفوسة لحرق دورها ، واتحدت مع العجم وضمت اليها أبا اليقظان ومعه الرستميون ، ودارت رحى حرب زبون استغرقت عدة سنوات ، وقد مرت تلك الحرب فى مرحلتين ؛ فى الاولى كان الانتصار لنفوسة والعجم حتى كادوا يبيدون وجوه العرب وابطالهم ، وفى الثانية ضعف العجم ونفوسة والرستميون ، فانحازوا الى عدوة نفوسة ، وبنوا لهم حصنا يلجأون اليه ، ومرة أخرى يبرز دور الثراء والاثرياء فان أغنياء التجار من امثال الصيرفى وابن الواسطى أعانوا العرب ليبنوا لانفسهم حصنا مقابل حصن أعدائهم ٠ وكانت نتيجة هذه الحرب المريرة جلاء المغلوبين عن المدينة : نزل العجم على بعد مرحلتين من تاهرت ، ونزلت الرستمية بموضع يقال له

اسكدال الى جنوب تاهرت ، على مسيرة يوم أو يزيد قليلا ، ونزلت نفوسة بقلعة عرفت باسمها (346 ـ 348) ؛ ومع كل ذلك لم تنطفىء نار الفتنة ، اذ كانت لواتة القبيلة الاباضية لا تزال فى المدينة ، فلما هاجمتها هوارة أعانها من تبقى فى المدينة من السكان ، فاضطرت لواتة الى الارتحال والنزول بحصن يعرف باسمها ، وكاتبت لواتة ابا اليقظان ، فغادر اسكدال وجاء حتى نزل بموضع يقال تسلونت عند منابع نهر مينة ٠

من الواضح اذن ان الحركة بدأت عرقية ، ثم اتخذت شكل الصراع المذهبى ، فان كل من اجتمع حول أبى اليقظان كانوا من الاباضية ، وأكثر من بقى فى المدينة لم يكونوا كذلك وزحفت الاباضية مع أبى اليقظان لاسترداد المدينة وظلت الحرب بين الفريقين مستعرة مدة سبع سنوات ، وهى مدة كافية للقضاء على كل ما كانت بلغته تاهرت من ازدهار علمى وحضارى ٠ وقد تمكن أبو اليقظان من دخول المدينة ، دون مؤاخذة لاحد بما سلف ، وحاول جهده انهاضها من كبوتها واعادة النظام والامن الى ربوعها ، وقد كان أبو اليقظان بحق نموذجا للزهد والورع والتواضع والعدل ومحبة الخير والرغبة فى نشر العلم حتى افتتنت به نفوسة الجبل : « وكان اذا ضرب سرادقه وأتت وفودهم لا ينامون الليل حول فسطاطة شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى الفجر ، فاذا صلوا الفجر معه خرجوا بأنفسهم الى الارض فناموا » (354) ، ويبدو أن استعلاء شأن الاباضية اثناء الفترة الطويلة التى قضاها أبو اليقظان فى الحكم ، قد أحنقت بعض أهل المذاهب الاخرى ، وملأت الصدور والنفوس بالتحفز ، ولهذا عمدت تلك الفئات عند وفاة أبى اليقظان الى بيعة امام جديد دون استشارة القبائل والاباضية ، ومن الحق ان الامام الذى بويع كان رستميا بل كان ابن أبى اليقظان نفسه ولكنه كان قبل الامارة قد أصبح ذا شعبية بين فتيان العوام (من غير الاباضية) بل أصبح منقادا لتوجيهات فقيهين حنفيين هما أبو مسعود الكوفى وأبو دنون ، ومعهما شخص ثالث من رؤساء السنة يعرف بعلوان بن علوان (أو رعلان) وكان هؤلاء ـ كما يقول ابن الصغير المالكى أو حسبنا بذلك شهادة ـ « قد طمعوا ان يبيدوا خبر الاباضية ويطفئوهم » (358) ٠

كان ذلك الامام الجديد هو أبو حاتم يوسف بن محمد أبى اليقظان ، ومرة أخرى تتحدد الفتنة على أساس مذهبى ، وتفرغ المدينة من أكثر اباضييها ، اذ جاء كل فريق الى حصنه:الرستميون ذهبوا الى حصنهم بطرف لواتة ، وبقية العجم لجأوا الى حصن خاص بهم ، وكذلك فعلت نفوسة ، وغادر أبو حاتم المدينة ومعه من وجوهها نحو مائة رجل ، وبقيت العامة ومشايخ البلد (طبعا من غير الاباضية) يتوقعون الحرب ، وأخذ من بقى فى المدينة يقولون : « ان القبائل رمتنا عن قوس واحدة ، والاباضية قد كلبت علينا وهم لا يكفون عن حربنا » (360) ·

ان حلقات هذا الصراع كانت نتيجة حتمية لطغيان المصالح المتضاربة ، وتجاوزها قدرة الحاكم السياسى الذى يضطر ـ لعدم وجود عصبية تؤيده أو جيش يسنده ـ الى الاتكاء على فريق دون فريق آخر · ويبدو ان الجيش النظامى الذى كونه الامام عبد الوهاب كان قد ضعف أو مزقته الانتماءات المتضاربة ، اذ لم نعد نسمع شيئا عن « الجند » بعد جولتهم فى صف العرب ضد العجم أيام أبى بكر ·

اننا لا نريد ان نلقى هنا هذا السؤال الذى يوحى بالجواب : ترى كم كانت هذه الصراعات التى تتخذ المذهبية لبوسا لها تخفى مطامح الطبقة الغنية ؟ وقصارى ما يمكن ان نقوله هو ان الاغنياء قد لعبوا دورا بارزا فى كل مرحلة من مراحل ذلك الصراع ، وهكذا حكموا على المجتمع التاهرتى بالشتات وعلى العمران بالخراب . واهدروا الاموال فى الباطل ، وقضوا على النشاط العلمى بالتراجع ، وفى رسالة لابى اليقظان ما يومىء الى هذه الحقيقة الاخيرة اذ يقول : « واعلمو رحمكم الله ان أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا وقلت الخلوف منهم » (22) · وقد كانت الفتن مجالا للفساد وانتشار الرذائل وظهور السراق وقطاع الطريق ، حقا ان جراح المجتمع التاهرتى كانت تلتئم كلما فاء الناس الى أنفسهم واستأنفوا الحياة الآمنة وعاد التسامح الاباضى لمقول « عفا الله عما سلف » ولكن طول فترة الخلافات تركت المجتمع التاهرتى مسلوب القوة منكوب العزيمة ، وهذا هو ما أدى الى التخاذل الاخير ، وسقوط المدينة ـ دون مقاومة ـ فى يد العبيديين ·

تعليقـــــات

1 ـ تاريخ ابن خلدون 6 : 112 ·

2 ـ كل ما يرد بين قوسين فى النص من اشارة الى الصفحات ، فانه يشير الى تاريخ ابن الصغير المنشور فى Ca سنة 1975 ·

3 ـ يورد ابن الصغير لرجل من الاباضية قوله عند بيعته أبى بكر ابن أفلح : « الله سائلكم معاشر نفوسة ، اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر وتم تجعلوا الامـــر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى » (340) ولكن ابن الاوز نسب ان الحمـــق والجنون فلم يكن احد يستمع الى كلامه ·

4 ـ تطنب المصادر الجغرافية فى وصف ما كان عليه حال منطقة تاهرت من خصب ، فيقول اليعقوبى (البلدان : 20) نقلا عن احد الرستمية وهـو أبو سعيد عبد الرحمن ابن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب انه يزرع فيها العصفر والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب ؛ ويصف ابن حوقل ما فيها من أشجار وبساتين وضروب الغلات (صـــورة الارض : 86) ويكرر الادريسى ما يقوله ابن حوقل (وصف افريقية 60) ويتحدث البكرى عن ثمارها وبخاصة سفرجلها (66) وكذلك صاحب الاستبصار (178) ·

5 ـ فى هذا الصدد ، يمكن أن نذكر صلة تاهرت التجارية عن طريق مرسى فـروخ وغيره بتجارة البحر المتوسط ، ثم بصلاتها بالمشرق والمغرب ، وعلى نحو خاص ببلادالسودان.

6 ـ الشراة فى اصطلاحهم ـ تقريبا ـ لفظ يطلق ويراد به جماعة تتركب مـــن أربعين رجلا فما فوق ذلك ، اشتروا آخرتهم بدنياهم ، بمعنى انهم تخلوا عن الـدنيا ، وعاهدوا الله على انكار المنكر والامر بالمعروف بدون مبالاةولا خوف من الموت (الازهار الرياضية 2 : 210) ·

7 ـ البكـــرى 67 ·

8 ـ الازهار الرياضية 2 : 122 ـ 124 ·

9 ـ البكـــرى 67 ·

10 ـ كتاب البلدان : 14 (ط. ليدن 1800) ·

11 ـ المصدر السابق نفسه ، وهذا مختلف ـ في رأيي ـ عن قول المقدسي انها « بلخ المغرب » فالمقدسي انما ينظر الى طبيعة الجو ، وكثرة الخيرات ٠

12 ـ أنظر بحثا كتبته عن هؤلاء البحريين في مجلة الابحاث (بيروت 1970) ٠

13 ـ الازهار الرياضية 2 : 99 وتاريخ أبي زكرياء 54 ـ 55 ٠

14 ـ الازهار الرياضية 2 : 273 ٠

15 ـ الازهار الرياضية 2 : 231 ـ 269 ٠

16 ـ يقرن مرة بين « العوام » و « الفرسان » (ص : 357) ولكن النقطة الثانية غريبة ولعلها مصفحة ٠

17 ـ صورة الارض : 93 ٠

18 ـ الازهار الرياضية : 137 ٠

19 ـ مختصر تاريخ الاباضية : 34 ٠

20 ـ الازهار الرياضية 2 : 137 ٠

21 ـ ذكر البارونى نقلا عن سير الشماخي ان أفلح عزم مرة على التوجه الى بلاد السودان قصد التجارة ٠ ولكن والده خرج اليه ـ كأنما يودعه ـ واخذ يسأله عن الامور الفقهية المتصلة بالبيع والشراء فلما وجده غير متمكن في هذه الناحية قال له : ارجع يا أفلح عما قصدته حتى تستعد لهذا الامر والا اطعمتنا الحرام من حيث لا تدرى (الازهار 2 : 195) والقصة تشير الى فترة مبكرة لم يكن أفلح قد تمكن فيها من العلم ، ولكنها لا تنفي انه ربما زاول التجارة من بعد ٠

22 ـ الازهار الرياضية 2 : 241 ٠